وهم الانتصار!

معتصم أبوالغيث

يُنقل عن أحد الرؤساء التنفيذين لواحدةٍ من كُبرى الشركات الأمريكية، أنه اجتمع ذات مرةٍ مع مدراء الإدارات في الشركة، وقام بإعطاء خيطٍ وبالونةٍ منتفخةٍ لكل واحدٍ منهم، ثم طلب منهم أن يقوموا بربط تلك البالونات إلى كواحل أقدامهم اليسرى، وأخبرهم بعد ذلك: أنه سيمنحهم خمس دقائق، يستطيع كُل واحدٍ منهم خلالها، أن يقوم بتفجير أي بالونةٍ من بالونات الأشخاص الآخرين، عبر الدوس عليها بأقدامهم، ومن استطاع منهم الحفاظ على بالونته إلى نهاية الوقت، سيحصل على جائزة. بعد ذلك بدأ وقت المنافسة بينهم، وبانتهاء الوقت المتاح انتهت منافستهم، وكانت النتيجة أن خرج الجميع وقد انفجرت بالوناتهم.

حينها قال لهم رئيسهم: لماذا خرج الجميع خاسراً من هذه المنافسة؟ لأن كُل واحدٍ منكم، قد بذل كل جهده وطاقته في تفجير البالونات الأخرى، حتى أولئك الذين انفجرت بالوناتهم قبل غيرهم، وبرغم علمهم أنه لم يعد باستطاعتهم الفوز والحصول على الجائزة، إلا أنهم قد استمروا في تفجير بالونات البقية، ليخسروا كخسارتهم! لقد كان باستطاعتكم الخروج جميعاً وأنتم فائزون، إذا أنتم اتفقتم فيما بينكم، وقررتم ألا يقوم أي واحدٍ منكم بتفجير أي بالونة، وأن كل واحدٍ منكم مسؤولٌ عن الحفاظ على جميع البالونات، لا بالونته فقط، عندها سيمضي الوقت المتاح لكم، وأنتم تتبادلون الحديث وتضحكون، لا وأنتم تتهاوشون ومتعبون، سينتهي وقت المنافسة دون أن تنفجر أي بالونة، وسيحصل كُلُ واحدٍ منكم على جائزة!

شبيهةً بأحداث هذه القصة السابقة، تسيرُ كثيرٌ من الأحداث في واقع وطننا اليمني المكلوم، فجميعُ الأطراف مُصرةٌ على يكون التنافس بينهم، قائماً على تدمير الآخر، والمحافظة على النفس وفقط، أما أن يتفق الجميع لأجل الجميع، فهذا مُحال، ولا يُمكن أبداً للفوز أن يضم الجميع! إننا وحين يذهب الجميع لتدمير الجميع، فإن ذلك لا يعني سوى أن ينتهي الجميع! إن الاعتقاد بأن الاستئثار بالانتصار هو ما نستطيع الوصول إليه، في ظل تلك المنافسات مع الغير، ليست سوى ظنون وأوهام، وإن بعض الظن إثم، إثمٌ لأنه يؤدي إلى ما لا تُحمد عُقباه، إثمٌ لأنه أسرع الطرق إلى تدمير هذا المجتمع المُنهك، إثمٌ لأنه طريقٌ إلى الهاوية السحيقة وفقط!

الجميع يعتقد: أنه كلما قام بتفجير بالونة واحدٍ من منافسيه، كلما اقترب هو من الفوز، ولكن الحقيقة أن ذلك يعني: أن واحداً من منافسيه قد أصبح أكثر حقداً عليه، وأن منافسه لم يعد لديه ما يخسره، وبعد أن كان جهد ذلك المنافس، منقسماً إلى المحافظة على بالونته وتفجير بالونة غيره، أصبح كل جهده الآن، مُنصباً على تفجير بالونة غيره وفقط! وربما كان أحدهم أكثر تحاذقاً من البقية، بتركه لمنافسيه يتهاوشون بينهم وهو بعيدٌ عنهم، ليكون هو الفائز الوحيد في الأخير، ولكنهم حين ينتهون من تفجير بالونات بعضهم، سريعاً ما سيتوجه جميعهم إليه.

ختاماً: لماذا الإصرار الدائم على الخسارة؟! لماذا الاستمرار بأضغاث أحلامٍ ينفيها واقع اليقظة؟! فبغير وصول الجميع إلى بر الأمان، لن تكون النتيجة إلا غرق الجميع! والانتصار لا يكون إلا بالاتفاق جميعاً، وحماية بعضنا بعضاً، لا بالحياة وحيداً، وسط كومةٍ من الجثث المتراكمة للبقية الآخرين!